الخلفيَّات الفكريَّة والفلسفيَّة للجندر -دراسة نقديَّة-

الدكتور غيضان السيِّد عليّ[1]

مُستخلَص:

تبلور مفهوم الجندر -الذي يعني إزالة التمييز بين الرجل والمرأة- في مناخٍ فلسفيٍّ أدَّى إلى ظهوره بالشكل الذي بدا عليه منذ ستينيَّات القرن الماضي، حيث نشأ كردٍّ فعلٍ على التاريخ الطويل لتلك النظرة الدونيَّة للمرأة واحتقارها في الفكر الفلسفيّ والاجتماعيّ الغربيّ، واعتمد على بعض أفكار عصر الحداثة التي نشأت نتيجةً لتغيُّراتٍ إيديولوجيَّةٍ وفلسفيَّةٍ طرأت على الأفكار والقناعات، من قبيل: العلمانيَّة التي أبعدت الدين كلِّيَّةً عن المشهد، والعقلانيَّة التي آمنت بقدرة العقل وتغليبه على النقل، والماديَّة التي تنكَّرت لكلِّ ما هو غيبيّ أو روحيّ، وتمجيد الفرديَّة التي جعلت الإنسان يتمركز حول ذاته لدرجةٍ كادت أن تختفي معها مقولة إنَّ الإنسان كائنٌ اجتماعيّ، ما جعل المنفعة والبحث عن اللذَّة هي الفلسفة الغالبة للغربيّ في عصر الحداثة. فإذا ما انتقل إلى ما بعد الحداثة ارتضى فلسفتها العبثيَّة التي تجعل من كلِّ ما هو راسخ -دينيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا- موضع إشكال. فتمرّد إنسان ما بعد الحداثة على المقدّسات، وشكّك في الثوابت والمسلَّمات. وتحت تأثير هذه الفلسفة رأت حركات الجندر أنَّ الرجل والمرأة يولدان جنسيًّا ذكرًا وأنثى، ولكن من حيث الثقافة والوظيفة

(1) أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة في كلِّيَّة الآداب جامعة بني سويف، مصر.

والماهيَّة الاجتماعيَّة، فهي لا علاقة لها بالولادة بل يكتسبها من المجتمع. كما عملت على تفكيك كافَّة المسلَّمات الراسخة حول: الأبويَّة، الدين، اللغة، الفنّ، الأزياء المرأة، الأنثى والأنوثة، الزواج والأسرة؛ لإعادة صياغتها لتصل إلى تحرُّرٍ كاملٍ للمرأة على كافَّة المستويات الدينيَّة والمهنيَّة والمدنيَّة والجنسيَّة؛ لأنَّها رأت أنَّ تلك كانت قيودًا فرضتها الثقافة الذكوريَّة التي كانت ترى المرأة مجرَّد متاعًا للرجل.

كلمات مفتاحيَّة:

الجندر، المرأة، العلمانيَّة، الحرِّيَّة، المساواة، الحداثة، ما بعد الحداثة، الأنوثة، تفكيك اللغة، تفكيك الدين.

مقدّمة:

لا يمكن النظر إلى مسألة الجندر التي برزت بوضوح في ستينيَّات القرن العشرين على أنَّها -فقط- وليدة التطوُّرات الفلسفيَّة لعصر ما بعد الحداثة، بوصفها مسألةً تحمل كلّ معالم تطرُّف هذا العصر من نسبيَّةٍ وفوضويَّةٍ وعدميَّةٍ ولا أدريَّةٍ وعبثيَّةٍ وتفكيكٍ لكلّ الأنساق الفكريَّة الحداثيَّة التي حاولت تحقيق قدرٍ من اليقين الذي يعوِّض الإنسان عن طمأنينة الإيمان الدينيّ، بل يجب النظر إلى جذورها وخلفيّاتها الفكريَّة والفلسفيَّة في كافَّة العصور التي مرَّت بها المجتمعات الغربيَّة، وخاصّة عصر الحداثة الذي اتّسم بالعلمانيَّة والعقلانيَّة والماديَّة وانتشار النزعات الفرديَّة، فضلًا عن التاريخ الإقصائيّ للمرأة والنظرة الدونيَّة إليها عبر العصور. حيث إنَّ الوقوف على تلك الخلفيَّات الفكريَّة والفلسفيَّة لمفهوم الجندر سيعيننا على فهم دلالات هذا المصطلح فهمًا جيِّدًا، ما من شأنه أن يحرِّر هذا المصطلح من السطو الدلاليّ الذي حرَّف دلالاته وحوّله إلى مصطلحٍ مزيّفٍ يرفض الإذعان للفروق البيولوجيَّة بين الذكر والأنثى.

أوَّلًا: مفهوم الجندر بوصفه مفهومًا غامضًا قلقًا:

صاغ عالم النفس الأمريكيّ «روبرت ستولر 1924 (Robert Stoller-1991م) مفهوم الجندر Gender لكي يُميِّز المعاني الاجتماعيَّة والنفسيَّة للأنوثة والذكورة على الأسس البيولوجيَّة للفروق الجنسيَّة الطبيعيَّة التي خُلقت مع الأفراد[1]. ويُعدّ مفهوم الجندر المفهوم الأكثر شيوعًا اليوم في الأدبيَّات النسويَّة، ويُترجمه بعضهم إلى «النوع الاجتماعيّ» أو «الجنسويَّة»، ويشير في معناه الأصليّ إلى تلك التمايزات الطبيعيَّة بين الذكر والأنثى، والفروق بين خصائص كلا الجنسين. وكان هذا هو المعنى الشائع للمفهوم

(1) جوسو، عصمت محمَّد: الجندر الأبعاد الاجتماعيَّة والثقافيَّة، لا ط، عمان، دار الشروق، 2008م، ص47.

حتَّى القرن العشرين، ثمَّ حدث له تغيُّر راديكاليّ في النصف الثاني من هذا القرن؛ إذ تحوَّل إلى المناداة بإلغاء الفروق بين الرجال والنساء، فمصطلح (Gender Discrimination) تُرجِمَ على أنَّه «إزالة التمييز بين الجنسين»، وتُرجم (Gender Equality) على أنها المساواة بين الجنسين وانتهى الأمر. وقد تبنَّت النسويَّة الراديكاليَّة (Feminism) مصطلح الجندر، ودعت إليه وحاولت تعميمه على المجتمعات كافَّة. فقد دعت النسويَّة الراديكاليَّة -تلك الحركة التي ظهرت في ستينيَّات القرن الماضي- إلى التغيير الاجتماعيّ والثقافيّ، وتغيير بُنى العلاقات بين الجنسين، وصولًا إلى المساواة المطلقة بوصفها هدفًا استراتيجيًّا. وقد اتَّسمت أفكار النسويَّة الراديكاليَّة بشكلٍ عام بالتطرُّف والشذوذ؛ إذ تبنَّت صراع الجنسين وعداءهما، كما عملت على تقديم قراءاتٍ جديدةٍ عن الدين، واللغة، والتاريخ، والثقافة، وعلاقة الجنسين[1]. ونادت بتحرُّر النساء من هيمنة الذكور وقمعهم، وأنَّ المجتمع لا الطبيعة هو الذي جعل الأنثى كذلك، أو على حدّ قول سيمون دي بوفوار الذي حاولت أن تبرهن في كتابها «الجنس الآخر» على أنَّه: «لا تولد المرأة امرأة، بل تصبح كذلك»، وأنَّ المرأة تمتلك جسدها ولها حرِّيَّة التصرُّف فيه، ورفضت الأسرة والزواج، والأمومة والإنجاب، وإباحة الإجهاض، ونادت بالشذوذ وبناء الأسرة اللانمطيَّة، وإعادة صياغة اللغة، وإلغاء دور الأب في الأسرة. كما رفضت تقسيم العمل الذي يضمن للذكور شغل الوظائف العامَّة بينما تبقى النساء في المنزل خادمات بلا أجر[2].

وفي مؤتمر المرأة الذي عُقد في بكين عام 1995م، والذي كان شعاره كما ورد في وثيقته الرسميَّة هو «إعادة صياغة المجتمع عن طريق رؤية العالم من خلال عيون النساء»، إنَّما عُقد بهدف تمكين المرأة وإلغاء كلّ

(1) الكردستانيّ، مثنى أمين: حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر، لا ط، الكويت، دار القلم، 2004م، ص53.

(2) العزيزي، خديجة: الأسس الفلسفيَّة للفكر النسويّ الغربيّ، ط1، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 2005م، ص26.

أشكال التمييز ضدها؛ حيث تحوَّل ما انتهى إليه هذا المؤتمر إلى برامج تعليميَّة ودورات تدريبيَّة من أجل تغيير ثقافة «المجتمعات المتخلفة» ومواجهة «السلطة الأبويَّة» و«السلطة الذكوريَّة». وفي وثيقة هذا المؤتمر وردت كلمة (جندر) حوالي 233 مرَّة، ولوحظ أنَّها تعبّر عن أكثر من معنى؛ فهي تارةً تشير إلى (الجنسين)، وتارة تشير إلى (المرأة) فقط، وتارةً للتعبير عن الأدوار المنوطة بالجنسين، وهكذا توسَّع المعنى وتمدَّد ليشمل معاني كلّها تحتشد تحت لواء لفظة (Gender)، وتمَّت بالتبعية ترجمتها في الإصدار العربيّ للوثيقة على أنَّها (الجنسين)، ما أفقدها منطقيَّة السياق في كثيرٍ من المواضع[1].

وعلى الرغم من ذلك الغموض الذي يجده القارئ في تقديم تعريفٍ جامع مانعٍ لمفهوم الجندر، يمكن القول إنَّ المعنى الراهن لهذا المفهوم يدور حول إلغاء كلّ الفروق بين الرجل والمرأة وعدم الاعتراف بها -سواء أكانت فروقًا بيولوجيَّة من نتاج الطبيعة أم فروقًا وظيفيَّة تتعلَّق بشأن الوظيفة الاجتماعيَّة في كلّ ما يُنتج عن هذه الخصائص العضويَّة من توزيعٍ لأدوار الحياة- والادِّعاء بأنَّ أيَّ اختلافٍ في الخصائص والأدوار، إنَّما هو من صنع المجتمع؛ لأنَّه وفقًا لمفهوم الجندر تصبح المهامّ التي يقوم بها كل من الجنسين (الذكر والأنثى) هي مهامّ تُشكِّلها الظروف الاجتماعيَّة وليس الاختلاف البيولوجيّ؛ إذ ترى فلسفة الجندر أنَّ التقسيمات والأدوار المنوطة بالرجل والمرأة، وكذلك الفروق بينهما من ثقافة المجتمع وأفكاره السائدة يمكن تغييرها بل وإلغاؤها تمامًا، بحيث يمكن للمرأة أن تقوم بأدوار الرجل، ويمكن للرجل أن يقوم بأدوار المرأة، وهذا يعني أنَّ فلسفة الجندر تتنكَّر لتأثير الفروق البيولوجيَّة الفطريَّة في تحديد أدوار الرجال

(1) قاطرجي، نهى: المرأة في منظومة الأمم المتَّحدة، ط1، بيروت، مؤسَّسة مجد، 1426هـ.ق/2006م، ص281.

والنساء[1]. وتذهب إلى الادِّعاء بأنَّ أيّ اختلافٍ في الخصائص والأدوار، إنَّما هو مصطنع ومن صنع المجتمع.

وبناءً على ذلك، يرى أنصار نظريَّة الجندر أنَّهم لا ينوون العودة مرةً أخرى للخضوع لفكرة أنّ القدر البيولوجيّ وحتميّته يحصر المرأة داخل صفات متعلِّقة بجسدها وجنسها. لذلك اتِّجهوا إلى استخدام كلمة جندر (Gender) بدلًا من كلمة جنس (Sex) للدلالة على أنَّ حقيقة الرجل والمرأة هي من صنع المجتمع «Socially Constructed» وأنَّه بالإمكان تغييرها.

ومن ثم تنطلق الفلسفة العامَّة لمفهوم الجندر من عقدة اضطهادٍ وهميَّةٍ أو متخيّلة لدى أنصار هذه الفلسفة مفادها أنّ المجتمع الذكوريّ قد هضم حقوق الأنثى، وتعامل معها على أنَّها جنس أدنى من الذكر، وأنّ الرجل يحتلّ المركز، في حين تقبع المرأة في الهامش، ولا همَّ لهذا الرجل سوى تهميش المرأة والتقليل من شأنها وأهمِّيَّة دورها، وبالتالي قهرها معنويًّا. ثم سعى أصحاب نظريَّة الجندر إلى تأسيس فلسفةٍ لا تقبل المساواة التي تراعي الفروقات الطبيعيَّة بين الجنسين، بل تدعو إلى التماثل بينهما في كلِّ شيء. وهذه الفلسفة شكَّلت تيَّارًا استطاع أن يغزو قارَّات العالم أجمع القديم منها والجديد، وهذا التيَّار دائمًا ما يأتي بتصوُّرات «دون كيشوتيَّة» لا تصل إلى النساء، ولا تقدّم لهنّ حلولًا، وتتَّسم بكثيرٍ من التجريد واللامعقوليَّة، فحتَّى في مجتمعات العالم الثالث المتخلفة لا توجد ذكوريَّة بهذا الاستفحال والقتامة، والأمر كلّه لا يتعدّى معركةً مخترعةً للوصول إلى أهدافٍ أخرى خفيَّة، ما دعا التيَّار النسوي التقليديّ وسائر حركات تحرير المرأة الواعية إلى التنصُّل منه والتبرُّؤ من أدبيَّاته. ومن ثم بدا مفهوم الجندر مفهومًا قلقًا لا يسعى لأهدافٍ نبيلةٍ بقدر ما يسعى لتحقيق أهدافٍ إيديولوجيَّةٍ لها مآرب أخرى غير مصلحة النساء كما هو معلن.

(1) البيضاني، عليّ زناد كلش: الجندر ومخالفتها للفطرة الإنسانيَّة، مقال إلكترونيّ تمّ الاطِّلاع عليه في 2024/2/29م على الرابط الإلكترونيّ: https://burathanews.com/arabic/articles/426962.

ثانيًا: الجندر بوصفه ردّ فعل للتميُّز الذكوريّ عبر التاريخ الغربيّ:

يبدو أنَّه من الضروريّ أن نقف على الجذور الفكريَّة التي تغذَّى منها مفهوم الجندر في ظهوره الراهن؛ فلا يمكن لفكرةٍ ما أن تظهر من العدم، فلكلِّ فكرةٍ تاريخٌ طويلٌ تبلورت خلاله، ومن الواضح هنا أنَّ مفهوم الجندر قد ظهر حينما قرَّرت المرأة الانتقام للميراث التاريخيّ لتسلُّط الرجال عليها، ومن ثم كان عليها أن تُعاقب بمثل ما عوقبت به. وهكذا نشأت الحركات الأنثويَّة المتطرِّفة، ومنها حركات الجندر كردّ فعلٍ على تلك المغالاة التاريخيَّة التي شهدتها المجتمعات الغربيَّة على مدار حقب طويلة بالغت خلالها في إهدار حقوق الأنثى وكرامتها؛ نتيجةً لسيادة أساطير خرافيَّة غير عقلانية واعتقاداتٍ دينيَّة مُحرّفة متراكمة، ظلمت الأنثى وجنت عليها وغالت في ازدرائها واحتقارها[1].

ويكفي أن نشير في هذا المقام إلى نماذج من احتقار المرأة في التراث الغربيّ؛ لنرى كيف كان غلوّ حركة الجندر المعاصرة تطرُّفًا يعالج تطرُّفًا آخر، وجنوحًا يعطي المرأة حقوقًا ليست لها في مقابل حرمانها السابق من كلِّ الحقوق.

ففي المجتمع اليونانيّ القديم كان وضع المرأة وضعًا مأساويًّا؛ فقد نظر إلى المرأة على أنَّها بحكم الطبيعة أدنى من الرجل، ومن ثم فهي تقتصر في وظيفتها على الجنس والإنجاب، وأداء الواجبات المنزليَّة، أمَّا العلاقات الاجتماعيَّة ذات المغزى فينبغي أن تُترك للرجل[2]؛ إذ سجنتها أثينا في ركنٍ مظلمٍ هو «الحريم» وحرَّمت عليها المشاركة في الأنشطة اليوميَّة التي يقوم بها الرجل واعتبرتها «ملكيَّةً خاصَّةً» لمتعة الرجل إن شاء يجعلها له خاصة أو يبيعها أو يهبها للآخرين دون أدنى إحساسٍ بخدش

(1) خان، وحيد الدين: المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربيَّة، ترجمة: سيِّد رئيس أحمد الندوي، ط1، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1414هـ/ 1994م، ص53.

(2) إمام، إمام عبد الفتَّاح: أفلاطون والمرأة، لا ط، بيروت، دار التنوير، 2009م، ص22.

كرامته أو مساسٍ برجولته. بينما جرَّدتها إسبرطة من أنوثتها وحوَّلتها إلى امرأة «مسترجلة» لا تهمُّها العواطف أو المشاعر حتَّى لو كانت مشاعر الأمّ وعواطفها، وذلك لكي تكون «امرأةً قويَّة» لا تلد إلَّا الأقوياء من الفرسان[1].

وقد شبَّه «سقراط» المرأة بالشجرة المسمومة التي يكون ظاهرها جميلًا، ولكن العصافير تموت عندما تأكل منها[2]. في حين حوّلها أفلاطون إلى رجلٍ كي يجد لها مكانًا في مدينته الفاضلة، وصوَّرها في (قوانين) أنَّها: قاصر، وليس من حقِّها أن ترث، ولا بدَّ من البحث عن رجلٍ يرث المتوفّى، ولا تملك من أمرها شيئا»[3]. أمَّا المرأة عند «أرسطو» فمهمّتها تقتصر فقط على الإنجاب، بل إنَّ مسئوليَّتها تكون كاملةً إن هي أنجبت الإناث!

أمَّا عن وضع المرأة في العصور الوسطى الغربيَّة، فلم تتميَّز المرأة في العصور الوسطى بميزةٍ واحـدةٍ عن العصور القديمة، بل العكس هو الصحيح؛ حيث زادت القيود والأغلال عليها، وكان ذلك متمثِّلًا في ما أضافه الآباء والقساوسة باسم الدين المسيحيّ؛ حيث جرى تصويرها بأنَّها أصل الغواية، وسبب الخطيئة الأولى، وهي ينبوع المعاصي، وأصل الفجور، والخطأ مرتبط بها، وأيّ خطيئة تكون وراءها امرأة، ومنها انبجست المعاصي على البشريَّة جمعاء، فأصبحت مسؤولةً عن خطيئتها وخطيئة زوجها والخطيئة الأولى لكلِّ البشر، ومسؤولة -أيضًا- عن موت ابن الإله -حسب زعمهم- حينما أراد الله أن يُخلِّص البشر من الخطيئة الأولى، وهي السبب الأوَّل الذي طُرد من أجله البشر جميعًا من الفردوس السماويّ[4].

ولم يكن وضع المرأة في العصر الحديث بأفضل منه ممَّا كان عليه في السابق، وهو الأمر الذي نجده واضحًا عند فلاسفة الحداثة؛ إذ ظلّ

(1) ديورانت، ول: قصَّة الحضارة، ترجمة: محمَّد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، لا ت، ص103.

(2) جوسو، الجندر، م.س، ص27.

(3) إمام، أفلاطون والمرأة، م.س، ص14-15.

(4) Rosemary R. Ruether, «Christianity», in Arvind Sharma, ed., Women in World Religions, Albany: State University of New York Press, 1987, p. 209.

فلاسفتها يسيرون على نهج التراث القديم؛ فلم يكن حديثهم عن تحرير الإنسان واسترداد كرامته وحقوقه سوى حديث عن الرجل فقط. فهذا ديـكـارت(1596-1650) الذي ينطلق من ثنائيَّته المشهورة بين العقل والجسد يرى أنَّ الرجل يُمثِّل العقل والمرأة تمثل الجسد تلك الرؤية التي قصرت دور المرأة على إمتاع الرجل وإسعاده. والرجل بوصفه يُمثِّل العقل هو المهتمّ بالأنشطة الفكريَّة والسياسيَّة، أمَّا المرأة فإنَّها غير مهيَّئة لذلك. وعلى هذا الدرب سار الفيلسوف الإنجليزيّ جون لوك (1632-1704)، والفيلسوف الفرنسيّ جان جاك روســو(1712-1778) فيلسوف الحرِّيَّة والديمقراطيَّة والمساواة، فإنَّه لم يعترف بهذه المبادئ إلَّا للرجل، أمَّا المرأة فلا حظّ لها منها. وساد هذا الرأي عند كانط وشوبنهاور ونيتشه ولم يختلف الأمر كثيرًا؛ فقد بغض شوبنهاور المرأة بُغضًا شديدًا حتّى أمّه، أمَّا نيتشه فقد كان يضع المرأة دائمًا موضع العبد الآبق أو الحيوان غير المطيع، فكان يقول: «إذا قصدت النساء فخذ السوط معك»[1].

وقد ظلَّت تلك النظرة الدونيَّة، وهذا الوضع المؤسف للمرأة حتى قرابة بزوغ فجر القرن التاسع عشر، وبدأت المرأة تتحسَّس طريقها نحو استعادة حقوقها المهدرة، وساعدها في ذلك المفكِّرون والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع الذين ساعد على وجودهم عصر الاستنارة الذي عاشته أوروبا خلال القرن الثامن عشر والذي أُطلق عليه عصر التنوير، والذي أُرسِيَتْ فيه دعائم العلمانيَّة والعقلانيَّة والماديَّة والمنفعة وانتشرت النزعات الفرديَّة. وبهذا دخلت المرأة الغربيَّة في طور جديدٍ وبدأت في نيل حقوقها واحدًا بعد الآخر، رغم تأخُّر المرأة الأمريكيَّة عن المرأة الأوروبيَّة في نيل حقوقها حتَّى عام 1964، حينما سنّ الكونجرس الأمريكيّ إعلان الحقوق المدنيَّة،

(1) عمارة، محمَّد: الإسلام والغرب أين الخطأ وأين الصواب، ط1، القاهرة، مكتبة الشروق الدوليَّة، 1424هـ/2004م، ص248.

فقد كانت مسؤوليَّة المرأة الأمريكيّة عن تصرُّفاتها قبل هذا التاريخ لا تزيد عن مسؤوليَّة الأطفال والحمقى والمجانين[(1)].

ثالثًا: الحركة الجندريَّة بوصفها نتيجةً للحركة النسويَّة التي بدأت مع عصر النهضة الأوروبيَّة:

مع بزوغ عصر النهضة الأوروبيَّة وظهور مفاهيم الحرِّيَّة والمساواة والتنوير بوصفها مطالب ضروريَّة للإنسان، ظهرت أصوات نسويَّة تُنادي بتحرير المرأة من كلِّ القيود التي أثقلت كاهلها عبر العصور المختلفة، فأخذت تدعو إلى إلغاء المفاهيم السائدة والأصول الدينيَّة التي تُركِّز على الفروق التي تقرُّها طبيعة الخلق ووجود الزوجين الذكر والأنثى؛ وبدأت هذه الحركة تطالب بالتمرُّد على كلّ الأفكار والقوانين والأعراف التي تجعل النساء خادماتٍ خاضعات، وفي مرتبةٍ أدنى من مرتبة الرجل، ورفضت تقسيم العمل في العالم الذي يجعل الرجال يتكلَّفون بالمجالات العامَّة: العمل، الرياضة، الحروب، الحكومة. بينما تكون النساء خادمات بدون أجر في المنزل، ويتحملن عبء الحياة الأسريَّة [(2)]. ورأت أنَّ الطريق الأمثل لتحقيق تلك المطالب هو أن تتضامن النساء مع بعضهن البعض على نحوٍ واعٍ، من أجل تحقيق تلك الأهداف، ومن هنا تكوَّنت البذرة الحقيقيَّة للحركة النسويَّة في عصر النهضة الأوروبيَّة.

وقد بدأت الحركة النسويَّة الحديثة مع الثورتين: الأمريكيَّة من ناحية، والفرنسيَّة من ناحية أخرى. فعندما عاد الفيلسوف الإنجليزيّ «توماس بين» إلى بلاده بعد خمسة عشرة سنة قضاها في أمريكا حيث عايش المناخ الثوريّ المنشِّط للتجربة الثوريَّة، وقد تعرَّفت عليه امرأة لعبت

(1) عمارة، محمَّد: تحرير المرأة بين الغرب والإسلام، ط1، القاهرة، مكتبة الإمام البخاريّ للنشر والتوزيع، 1430هـ.ق/2009م، ص63.

(2) واتكنز، سوزان ألس؛ رويدا، مريزا؛ رودريجوز، مارتا: أقدم لك الحركة النسويَّة، ترجمة: جمال الجزيري، مراجعة علميَّة: شيرين أبو النجا، إشراف وتقديم: إمام عبد الفتَّاح إمام، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م، ص15.

دورًا خطيرًا في قضيَّة تحرير المرأة هي «ماري ولستون كرافت» (1759-1797) فقد قرأتْ بإمعانٍ كتابه الرائع عن «حقوق الإنسان» الذي صدر بين عامي 1791-1792 وتأثَّرت به فأخرجت كتابها الشهير «دفاع عن حقوق المرأة» عام 1792، الذي لاقى معارضةً عاصفة؛ إذ يُعتبر أوَّل كتاب مهمّ في الحركة النسويَّة في انجلترا، وكانت صاحبته تتوق إلى أن ترى التمييز على أساس الجنس قد تلاشى تمامًا، وهو الأمر الأساس الذي تتبنَّاه الحركات الجندريَّة اليوم. كما نادت كرافت بالتعليم العامّ المختلط، فضلًا عن حقّ النساء في العمل بالتجارة والحرف والمهن المختلفة، فكان كتابها هذا بحقّ حجر الأساس للحركة النسويَّة[1]. وصارت على دربها بائعة الهوى النسويَّة الفرنسيَّة آن جوزيف تروانى (1766-1817) في المطالبة بتلك المطالب حتَّى تمَّ رجمها بالحجارة ما أدَّى إلى تلف المخ، ولم تشف من ذلك مطلقًا، وظلَّت بمستشفى الأمراض العقليَّة حتَّى ماتت، وبها انزوت الحركة النسويَّة في فرنسا.

أمَّا في الولايات المتَّحدة فقد ولَّدَ الصراع من أجل حقوق المرأة نمطًا مختلفًا؛ فإذا كان الصراع من أجل الحرِّيَّات الديمقراطيَّة في الثورة الفرنسيَّة أعطى نساء أوروبا في البداية بارقةَ أملٍ في إمكانيَّة الإطاحة «بالطغيان المنزليّ للرجل»، ففي الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، كانت الحركة المناهضة للعبوديَّة هي التي أعطت النساء -سوداوات كنَّ أو بيضاوات- الفرصة في تنظيم أنفسهن سياسيًّا ضد قمعهن[2]. ومن شجاعة وعناد هؤلاء النساء الأفروأمريكيَّات، ومن منصَّات جمعيَّة مناهضة العبوديَّة، استمدّ الروّاد البيض لحركة حقوق النساء الأمريكيَّات إلهامهم الأصليّ ومبادئهم السياسيَّة، وأخذن في شنِّ حملاتٍ لتحسين أحوال المعلِّمات، ومن أجل حقوق العاملات في رفع أجورهنّ الخاصَّة لتتساوى فيه مع الرجال الذين يؤدُّون

(1) واتكنز وأخريات، أقدم لك الحركة النسويَّة، م.س، ص27.
(2) م.ن، ص40.

العمل نفسه، وحقوقهنّ في الملكيَّة وفي التعليم والوظائف والانتخاب. وفي إنجلترا عام 1865م تقدَّمت بعض النساء بالتماساتٍ لمشروع قانون حقّ المرأة في التصويت بهدف تقديمه للبرلمان على يد العضو المنتخب حديثًا جون ستيورات مل.

وفي ضوء هذه المطالبات التي دعت إليها الحركات النسويَّة، وفي أجواء الحراك الطويل والمديد عبر أجيالٍ متعاقبةٍ، تشكَّلت تيَّارات نسائيَّة لم تكن كلّها على خط واحد، فمنها من حاول الحصول على بعض الحقوق المشروعة، ومنها من تطرف كما هو الحال في هذه الحركات الآتية:

1. **النزعة الأنثويَّة المتطرِّفة:** تُعدُّ هذه النزعة -في حقيقتها- أثرًا من آثار فلسفة ما بعد الحداثة الغربيَّة؛ إذ تحمل كلّ معالم تطرُّفها الذي بلغ حدّ الفوضويَّة والعدميَّة واللا أدريَّة والعبثيَّة والتفكيك لكلَّ الأنساق الفكريَّة الحديثة التي حاولت تحقيق قدرٍ من اليقين الذي يعوِّض الإنسان عن طمأنينة الإيمان الدينيّ التي هدمتها الحداثة بالعلمانيَّة والمادية والوضعيَّة منذ عصر التنوير الغربيّ العلمانيّ في القرن الثامن عشر. فكانت بذلك ثورةً فوضويَّةً وحربًا على الفطرة السويّة بما في ذلك فطرة الأنوثة ذاتها[1].
2. **حركة التمركز حول الأنثى:** وهي -أيضًا- إحدى الحركات الأنثويَّة المتطرِّفة؛ حيث تدعو هذه الحركة -بحسب ما جاء على لسان زعيمتها الفيلسوفة الوجودية سيمون دي بوفوار في كتابها «الجنس الثاني The Second Six»- إلى التمرُّد على الـزواج؛ فالزواج هو «السجن الأبديّ للمرأة الذي يقطع آمالها وأحلامها»، بل اعتبرت مؤسَّسة الزواج «مؤسَّسة لقهر المرأة يجب هدمها وإلغاؤها!» وأنكرت أيّ تميّز طبيعيّ للمرأة عن الرجل، «فلا تولد المرأة امرأة، بل تصير كذلك» بفعل البيئة

(1) عمارة، الإسلام والغرب أين الخطأ وأين الصواب، م.س، ص236.

الاجتماعيَّة. كذلك جعلت هذه الحركة من الدين ومن الألوهية عدوًّا لهذه الفلسفة الأنثويَّة «فالدين برأيها كان محايدًا عندما لم يكن للآلهة جنس، ثم انحاز الدين إلى المرأة عندما أصبحت الآلهة إناثًا، ثم تحوَّل إلى عدوٍّ للمرأة بسبب التفسيرات الذكوريَّة للدين! ورأت هذه الحركة أنَّ المرأة مالكة لجسدها تتصرَّف فيه جنسيًّا كيفما تشاء، وبناءً عليه لها الحقّ في الإجهاض والبغاء والشذوذ! كما رفضت الأمومة والإنجاب وأطلقت عليه «عبودية التناسل»[1].

3. **الجندريَّة الليبراليَّة:** اهتمَّت في المقام الأوَّل بإزالة التمييز بين الرجل والمرأة، ومن ثم ركَّزت جهودها على إيجاد الفرص المتكافئة للنساء وحمايتها عبر التشريعات والوسائل الديمقراطيَّة الأخرى، مثل: قوانين المساواة في الأجر، والقوانين المناهضة للتمييز ضدّ النساء، والقوانين الأخرى التي تجعل للنساء والرجال حقوقًا متساوية أمام القانون. كما يُطالب التيَّار الجندريّ الليبراليّ الحكومات والمنظَّمات والمؤسَّسات الحاكمة بتطبيق سياسيةٍ جندريَّةٍ نوعيَّةٍ ديمقراطيَّةٍ قائمةٍ على المساواة والتماثل والتكامل، والإنصاف في ما هو ماديٌّ ونوعيٌّ بين الجنسين معًا، دون السعي إلى إسقاط النظام الليبراليّ بكامله، كما تذهب إلى ذلك الجندريَّة الراديكاليَّة[2].

4. **الجندريَّة الراديكاليَّة:** اتِّجاهٌ ثوريٌّ يثور على ظلم الرجل البطريركيّ الذي يستعبد المرأة ويحوّلها إلى مجرَّد ظاهرةٍ جسديَّةٍ. ومن ثم، يستلبها ويستغلّها ويهيمن عليها. وعليه، تنطلق النسويَّة الراديكاليَّة المتطرِّفة من الاعتقاد بأنَّ الرجال هم المسؤولون عن استغلال النساء وهم المنتفعون في الوقت نفسه من هذا الوضع. كما تُركِّز هذه المدرسة

(1) عمارة، الإسلام والغرب أين الخطأ وأين الصواب، م.س، ص238.
(2) حيدر، خضر: «مفهوم الجندر»، مجلّة الاستغراب، بيروت، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيَّة، 2019م، العدد 16، ص292.

على العائلة باعتبارها المنبع الأوَّل لقمع المرأة في المجتمع، فدعت إلى إلغاء الأسرة، وحرِّيَّة المرأة في التصرف في جسدها حسبما تشاء.

وهكذا كانت الحركات الجندريَّة نتيجةً منطقيَّةً للحركة النسويَّة التي بدأت مع عصر النهضة الأوروبيَّة، والتي تغذَّت على أفكار فلسفة الحداثة وما بعدها، وأخذت في التطوُّر على أيد أجيالٍ متعاقبةٍ حتى وصلت لمثل هذه النزعات المتطرِّفة التي تؤكِّد على أنَّ المرأة لم تولد امرأةً ولكن المجتمع هو الذي جعلها كذلك؛ ولذلك كان لا بدَّ من تفكيك كلّ هذه العادات والتقاليد الدينيَّة والمجتمعيَّة للعودة بالمرأة إلى مكانتها التي لا تقلّ شيئًا عن الرجل، فهما -حسب وجهة نظر هذه الحركات الجندريَّة- متساويان في كلّ شيء؛ ولذلك يجب إزالة التمييز بين الجنسين الذي هو من صنع المجتمع.

رابعًا: الحداثة والأسس الفكريَّة والفلسفيَّة لمفهوم الجندر:

كانت الحداثة بمثابة ثورة حقيقيَّة على مذاهب القدماء وعاداتهم وتقاليدهم، فالنهج الحداثويّ هو ذلك الذي ينكر أيّ قدرةٍ أو اعتبارٍ أو احترامٍ للقدماء أو للسنن الماضية ويحاربها، وفي المقابل يدافع عن أيِّ فكرٍ حديثٍ وجديد. وكانت أهمّ مبادئ الحداثة أدوات رئيسةً في أيدي الحركات النسويَّة يستندْنَ إليها ويتَّخذْنَ منها مرجعيَّةً فكريَّةً يُؤسِّسنَ من خلالها أفكارهن، ومن أهمّ مبادئ الحداثة التي خدمت الحركات النسويَّة ومن بعدها حركات الجندر:

1. **العقلانيَّة:** اهتمَّت الحداثة اهتمامًا فائقًا بالإنسان وقدراته؛ ولذلك وُضع الإيمان بالعقل والاعتقاد بقدراته على رأس أجندة فلاسفة الحداثة، فكان المقياس والمعيار الأساس هو حاكميَّة العقل في الأمور كلِّها، ومحاربة كلّ ما هو غير عقلانيّ أو مانع لحكم العقل وإزالته[1]. وفي منظومة

(1) رودكر، نرجس: فيمينزم (الحركة النسويَّة) مفهومها أصولها النظريَّة وتيَّاراتها الاجتماعيَّة، تعريب: هبة ضافر، ط1، بيروت، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيَّة، 2019م، ص35.

الحداثة لا بدَّ من قياس أيّ فرقٍ أو تمييز بمعايير العقل البشريّ، ومن الطبيعيّ في هذه الأحوال أن يخطر على الأذهان السؤال الآتي: على أيِّ أساس يتسلَّط الرجال على النساء، ولماذا تُلزم المرأة بطاعة الزوج؟ ومن ناحية أخرى نظرت الحداثة -بناءً على حاكميَّة العقل البشريّ- إلى المرأة بوصفها إنسانًا يمتلك عقلًا ولها قدرة على التفكير، ومن ثمّ فإنَّها تستحقّ الاحترام، وتستحقّ كافة الحقوق المكفولة للرجل. كما أتاح تأكيد الحداثة على عدم قبول أيِّ فكرةٍ أو رأيٍ ما لم يتمّ البرهنة عليه عقليًّا، فللمرأة أن تُشكِّك في كافَّة التقاليد الاجتماعيَّة التي تقلِّل من شأنها، من قبيل: تأطير المرأة كربَّة منزل، وفي وظائف المرأة، وفي قدراتها وإمكاناتها.

2. **الليبراليَّة:** كانت الليبرالية وليدة الحداثة؛ لذا فقد حرّكت عجلة التغيُّرات المتعلِّقة بقضايا المرأة بوتيرةٍ أسرع، فالليبرالية فلسفة شعارها الأساس الفرديَّة، والمعيار فيها للحصول على الحقوق المدنيَّة هو الفرديَّة (كونه إنسانًا) فقط، وتُشكِّل حرِّيَّة الفرد واستقلاله وحقوقه... المباحث المهمَّة للخطاب النسويّ، فقد حلَّت مسألة أصالة الفرد مكان أصالة المجتمع، وأصبح للإنسان بوصفه فردًا احترامٌ وقيمةٌ وحقوقٌ لم تكن ممنوحةً له سابقًا، فأصبح الفرد هو المعيار للقِيم الأخلاقيّة وأصبح الأمر «الحسن» هو الأمر الذي يُحبّه الإنسان بصفته فردًا و«القبيح» عكس ذلك. وكان من أبرز نتائج الفرديّة الليبراليَّة، هو الحرِّيّة، ومبدأ الحريّة يُبيّن أنّه يحقّ للإنسان أن يكون له القرار في ما يختصّ بحياته الفرديَّة، ولا يحقّ لأيِّ مؤسّسةٍ كالحكومة أو الكنيسة أن تفرض إرادتها عليه، فحرِّيّة الفكر والإعلام (التعبير والصحافة)، وحريّة المجتمع يُعدّان من الأركان الأخرى لليبراليّة، فالفرد يستطيع أن يواجه الظلم والاستبداد من خلال السلطة النابعة عن المجتمع[1]. ولذلك كان من الطبيعي جدًّا أن تكون

(1) رودكر، فيمينزم (الحركة النسويَّة) مفهومها أصولها النظريَّة وتيَّاراتها الاجتماعيَّة، م.س، ص38.

الليبراليَّة والفرديَّة من أهمِّ المنطلقات الفلسفيَّة لحركات الجندر؛ إذ إنَّها تؤكِّد على فرديَّة المرأة وتجريدها من السياق الاجتماعيّ وإبرازها ندًّا للرجل، وعدم ربطها لا بالمجتمع ولا بالأسرة ولا بالأطفال. وعليه، فالليبراليَّة بتأكيدها على الحرِّيَّة الفرديَّة جعلت المرأة تتحدَّث عن حقوقها الفرديَّة كحقِّها في تملُّك جسدها، وحقِّها في رفض الإنجاب، ورفض الرضاعة والأمومة، وحقّها في إطلاق رغباتها الجنسيَّة والحبّ الحرّ، بل وحقِّها في الشذوذ الجنسيّ والزواج المثليّ. فالتحرُّر الجنسيّ أمرٌ متمِّمٌ وعنصرٌ مكمِّلٌ للتحرُّر الاجتماعيّ.

3. **العلمانيَّة:** بمعنى تغليب العقل البشريّ على النقل الإلهيّ، ورفض أن يكون الدين مرجعيَّةً عليا للقطع في الأمور، والعودة إليه عند الاختلاف. ولم يقف الأمر عند ذلك الحدّ بل تجاوز كلّ الحدود إلى الإلحاد وإنكار وجود الله بالكلِّيَّة. ويبدو أنَّ ذلك كان نتيجةً طبيعيَّةً للكنيسة وممارساتها، والتي أصرَّت على تقديم أفكارٍ بشريَّةٍ معوجة باسم الدين المسيحيّ، ذلك الدين الذي لم يحافظ على ربانيَّته وسلامة نصوصه من التحريف؛ ولهذا بدا غير قادرٍ على مواكبة الواقع الجديد ومواجهة تحدِّياته[1]. ونتيجةً لهذا فَقَدَ الدين مرجعيَّته وهيمنته وحجِّيَّته في تعيين الخير والشرّ، والحقّ والباطل، والفضيلة والرذيلة، وبدت الحياة البشريَّة بلا غرضٍ ولا معنى. وقد مثَّلت حركات الجندر قمَّة هذا الاتِّجاه العلمانيّ، فأنكر كثيرٌ من روَّادها صحَّة الدين بالكلِّيَّة، وربطوه بالتخلُّف، وهاجموا أسس الدين وثوابته، واعتباره أصلًا من الأصول التي قيَّدت حرِّيَّة المرأة وأخضعتها للرجل، ومن ثمّ فلا مفرّ من التخلُّص من الدين، أو اختراع دينٍ أنثويٍّ جديدٍ يرى أنَّ الإله لا بدَّ أن يكون أنثى.

(1) الكردستاني، حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر، م.س، ص108.

4. **المادِّيَّة:** تعني المادِّيَّة التمركز حول المادِّيّ والمحسوس، وإهمال كلّ ما هو غيبيّ وروحيّ، ولا شكَّ أنَّ هذه السمة هي السمة الغالبة على الفكر الغربيّ في معظمه، وخاصَّةً في الفترة الحديثة حيث انزوت التفاسير الميتافيزيقيَّة لظواهر الكون والإنسان، وسادت التفاسير العلميَّة المادِّيَّة للظواهر كافَّة، الأمر الذي وجد ترحيبًا من الغربيّ، خاصَّةً بعد الإنجازات الكبيرة التي حقَّقتها المادِّيَّة في المجالات العلميَّة والتقنيَّة. ولعلَّ أبرز الفلسفات التي أثَّرت في العالم الغربيّ هي الفلسفات المادِّيَّة، من قبيل: الشيوعيَّة والمادِّيَّة التاريخيَّة التي تعتبر المادَّة أصل الأشياء والكائنات، بل تعتبرها أصلًا للوعي والوجود، وزاد الأمر سوءًا في فلسفات ما بعد الحداثة[1]. ليتمّ تفسير الكون كلّه تفسيرًا مادِّيًّا خالصًا، والنظر إلى كلّ ما هو دينيّ على أنَّه أمرٌ من متعلّقات الماضي يجب التخلُّص منه. ومن ثمَّ أثَّرت هذه التحولات كلّها في تفكير الحركة الأنثويَّة وأطاريحها، حيث قصرت المادِّيَّة دور المرأة على أنَّها أداة للمتعة فأضاعت أنوثتها، وأنهكت طاقتها، بل واستُغلَّت جنسيًّا من قِبَل صاحب العمل، ما أدَّى في نهاية المطاف إلى انتشار البغاء، وتجارة الرقيق الأبيض، وبيع النساء والصبايا في سوق نخاسة الجنس والدعارة[2].

5. **العبثيَّة والتشكيكيَّة:** إنَّ التمرُّد على المقدَّسات، والتشكيك في الثوابت والمقدَّسات، والعبثيَّة في الحياة والتفكير، كانت العناصر الرئيسة في تكوين كثيرٍ من الاتِّجاهات الفكريَّة والفلسفيَّة في الغرب، مثل: فلسفات السيرياليَّة، والعبثيَّة، والوجوديَّة، والتشكيكيَّة، والفوضويَّة، والفلسفة النسبيَّة. وقد صبغت هذه الأفكار الحياة والثقافة والفنّ الغربيّ على نطاقٍ واسع[3]. فالتشكيكيَّة اتِّجاهٌ فلسفيٌّ يُشكِّك في الحقائق كافَّة؛ كالشكّ في وجود الله أو الشكّ في الدين والأخلاق والعادات والتقاليد،

(1) الكردستاني، حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر، م.س، ص124.
(2) م.ن، ص126.
(3) م.ن، ص132.

وأنَّ الإنسان قد أصبح بلا مرجعيَّة ثابتة يعود إليها، وإنَّما هناك مرجعيَّة بشريَّة متغيِّرة تتمثَّل في القانون الوضعيِّ لأيِّ دولة؛ فتحوَّلت بذلك القيم والأخلاق من موضوعيَّةٍ إلى ذاتيَّة، ومن مطلقةٍ إلى نسبيَّة[1]. وهنا كان الجو ملائمًا لنشأة أفكارٍ متطرِّفةٍ كنشأة أفكار الجندر أو حركة التمركز حول الأنثى التي عبثت وشكَّكت في القيم الدينيَّة والأخلاقيّة وقِيَم المجتمعات كافَّة.

6. **الصراع بين الأضداد:** نظرت الفلسفة الغربيَّة إلى أنَّ الحياة عبارة عن صراع، وأنَّ الصراع هو الذي يحكم العالم، ويُحرِّك التاريخ، وأنَّه لا بدَّ من الصراع ليبقى واحدٌ هو الأصلح، فالبقاء للأقوى وللمنتصر في الصراع، فقديمًا تحدَّثت الأساطير اليونانيَّة عن الصراع بين الآلهة والإنسان، وفي العصور الوسطى جسَّدت المسيحيَّة الصراع بين الجسد والروح بوصفها سمةً مميّزة لهذا العصر، وفي العصر الحديث رأى هوبز أنَّ «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان»، وتكلَّم ماركس عن الصراع بين الطبقات، وفي القرن العشرين رأى سارتر أنَّ «الآخرون هم الجحيم» معبِّرًا عن الصراع بين الإنسان والآخرين، كما تحدَّث صمويل هنتجتون عن صراع الحضارات...إلخ، ومن ثمّ أخذت حركات الجندر مبدأ الصراع ووظَّفته بوصفه مبدأً يحكم العلاقة بين الرجل والمرأة؛ فصاغت حقوقها في مواجهةٍ صراعيَّةٍ مع الرجل بل إنَّها صوَّرت التاريخ كلّه على أنَّه صراعٌ بين الجنسين، وفي المرحلة الأخيرة تجاوزت حركات الجندر مفهوم الصراع إلى إعلان الحرب والعداء ضدّ الرجل[2].

وهكذا بدت الخلفيَّات الفكريَّة والفلسفيَّة للجندر التي استندت إليها الناشطات الأنثويَّات وأكملوا عليها، فمثَّلت بحقّ المعينَ الحقيقيَّ لكلِّ آرائهم المتطرِّفة. كما لا يجب أن نهمل جهود جون ستيوارت مل (1806-1873)

(1) ستيس، ولتر: الدين والعقل الحديث، ترجمة: إمام عبد الفتَّاح إمام، ط1، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1998م، ص129.

(2) الكردستاني، حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر، م.س، ص141.

نصير المرأة في عصر الحداثة، فإليه تعود -دائمًا- حركات الجندر لتجد ما تؤسّس عليه دعواها ومزاعمها؛ إذ ذهب «مل» إلى عدم وجود تفاوت طبيعيّ بين الجنسين. فإذا كانت فلسفة «مل» النفعيَّة تقوم على تحقيق أعظم قدرٍ من السعادة لأكبر عددٍ من الناس، فلم يكن تأييده لقضيَّة المرأة يستهدف فقط زيادة سعادة النساء أنفسهن، رغم أنَّ ذلك يمثِّل جانبًا مهمًّا من هذا الهدف، بل كان مطلبًا بالغ الأهمِّيَّة لتحسين أحوال البشر. ومن أجل هذا الهدف كتب «مل» كتابه ذائع الصيت «استعباد النساء» ندَّد فيه بسيطرة الرجل على الأنثى. ولا شكَّ أنَّ علاقته الحميمة والطويلة مع «هاريت تايلور» التي عانت على نحوٍ مباشر من نتائج التفرقة والتمييز لجنسها لا سيَّما في صورة قوانين الزواج، وحجب فرص التربية والتعليم. فنادى بحقّ النساء في التصويت والاقتراع، وحصول المرأة على حقوقها السياسيَّة والمدنيَّة كاملة، مرتئيًا أنَّ المجتمع في حالة المساواة يكون في وضعه الطبيعيّ، وأنَّ المدرسة الوحيدة للمشاعر الأخلاقيَّة الأصيلة هي مجتمع مؤلَّف من أنداد، فقد تساءل «مل»: كيف نأمل في تقدُّم أخلاقيّ للمجتمع طالما أنَّ جوّ المنزل الذي يتلقَّى فيه جميع أعضائه التربية الأخلاقيّة المبكّرة يقوم على أساسٍ غيرِ عادل في توزيع الحقوق والسلطات؟! مقرِّرًا أنَّ الأسرة -على الأقلّ بالنسبة إلى الأطفال- تصبح مدرسة تعاطف وجدانيّ ومساواة وعيش مشترك في حبّ، حينما لا تكون هناك سلطة في جانب وطاعة في جانب آخر[1]. كما نادى بحرِّيَّة المرأة تجاه الزواج فإذا شاءت تزوَّجت، وإذا لم تشأ فهي حرّة في قرارها. ونادى -أيضًا- بحقّ المرأة في التملُّك؛ فرأى أنَّ كلَّ ما كان ملكًا للمرأة أو للرجل إذا كانا غير متزوِّجين يجب أن يكون تحت سيطرة كلّ واحدٍ منهما أثناء الزواج. كما رفض مناقشة الأدوار النمطيَّة للمرأة داخل الأسرة التقليديَّة وما

(1) مل، جون ستيوارت: استعباد النساء، ترجمة: إمام عبد الفتَّاح إمام، لا ط، دار التنوير، بيروت، 2009م، ص90-92.

تتطلَّبه من النساء، وهو الأمر الذي عملت ناشطات الجندر على استكماله، خاصَّةً في ظلّ ازدهار الفلسفات العلمانيَّة والعقلانيَّة والماديَّة والنفعيَّة في القرن التاسع عشر.

خامسًا: ما بعد الحداثة والأسس الفكريَّة والفلسفية للجندر:

استطاعت ناشطات الجندر -عَبْر المساعي الحثيثة والمؤتمرات الكثيرة- المطالبة بمطالب أربعة، هي: المساواة في الأجور والتعليم والعمل، إنشاء حضانات ودور رعاية أطفال تعمل على مدار اليوم، الحرِّيَّة المطلقة في استخدام وسائل منع الحمل، وإباحة الإجهاض. وقد وضعت الناشطات الأنثويّات لتحقيق ذلك مجموعةً من الأصول الفكريَّة التي يقوم عليها دستور هذه الحركة ويحكم توجُّهاتها. ولبناء المرجعية الفكريَّة المناسبة عادت منظِّرات الجندر إلى الفلسفة التفكيكيَّة -أحد أهمّ تيَّارات ما بعد الحداثة- مفكِّكةً Deconstruction الأطر العامَّة التي أدَّت إلى استعباد المرأة وحرمانها من حقوقها ومعيدةً تركيبها من جديد.

والتفكيك آليَّة فلسفيّة من آليَّات ومفردات فلسفة ما بعد الحداثة تعمل على خلخلة كلّ المعاني الثابتة، ومحاولة إضفاء معانٍ أخرى مختلفة عن تلك المعاني الموروثة الثابتة. ومن ثمّ اتّسمت فلسفة ما بعد الحداثة بالتمرُّد على المقدّسات، والتشكيك في الثوابت والمسلّمات، ووضع كلّ ما هو راسخ موضع إشكال، وسيادة العبثيَّة في الحياة والتفكير، فوجدت حركة الجندر فيها مرادها وبغيتها، وراحت تعمل على تفكيك المفاهيم التي رأت أنَّها وراء ضياع حقوق المرأة واستعبادها واسترقاقها، وهي كما تقول خديجة كرار مفاهيم سبعة: الأبويَّة، الدين، اللغة، الفنّ، أزياء المرأة، الأنثى والأنوثة، الزواج والأسرة[1].

(1) كرار، خديجة: الأسرة في الغرب أسباب تغيير مفاهيمها ووظيفتها دراسة نقديَّة تحليليَّة، ط1، دمشق، دار الفكر، 1430هـ.ق/2009م، ص268.

1. **تفكيك الأبويَّة:** رأت الحركات الجندريَّة في تفكيكها لمعنى الأبويَّة أنَّه في بداية نشأة المجتمعات كانت الأم هي المتحكِّمة في كلِّ شيء (المجتمع الأموميّ)، وأنَّ الرجل -لأسبابٍ اقتصاديَّةٍ واحتكاريَّةٍ- انتزع هذه السلطة. كما كانت «الشيوعيَّة الجنسيَّة» هي الأصل السائد، ولكن أنانيَّة الرجل ورغبته في التملُّك هي التي اخترعت الزواج. ورأت أنَّه يجب توعية المرأة بذلك لتستعيد ما نُزع منها. وفي الحقيقة ما أبعد تلك المزاعم عن الحقيقة؛ إذ هي مزاعم ليس لها أيّة أساس من الصحة أو سند علميّ كما يؤكِّد على ذلك علماء الأجناس الغربيِّين أنفسهم.

2. **تفكيك الدين:** ذهب أنصار نظريَّة الجندر إلى أنَّ الدين كان من أهم الأسباب التي أدَّت إلى ضياع حقوق المرأة؛ إذ رأت أنَّ الشرائع الدينيَّة قد بالغت في ما أثقل كاهل المرأة وقيّدها بقيود أذلّتها وحطَّت من كرامتها[1]. ومن هنا دعت ناشطات الجندر إلى هدم الدين بما يحمله من رؤى ذكوريَّة، وتأسيس أديان أنثويَّة، فحاولت الفيلسوفة الجندريَّة ناعومي جولدنبرج N. Goldenberg وضعَ رؤيةٍ جديدةٍ للألوهيَّة تتمركز حول الأنثى في محاولةٍ منها لبناء دينٍ نسويٍّ جديد يُمَكِّن المرأة من إقامة حياة روحيَّةٍ مقدَّسةٍ مباينةٍ لتلك الصورة التي تمتهن المرأة في الأديان السماويَّة الذكوريَّة (حسب وصفها)، وكان ذلك من خلال دعوتها إلى العودة إلى عبادة المرأة/ الإلهة؛ لأنَّ عبادة المرأة ترفع من شأن المرأة، وتربط بين الدين والخصوبة والخير والقوَّة في مقابل عبادة الربّ/ الإله الذي يدعو إلى الثبات والهيمنة والسيطرة[2]. كما شاركتها الدعوة الكاتبة الأمريكية ستار هوك S. Hock التي دعت إلى دينٍ يقوم

(1) انظر: إمام، إمام عبد الفتَّاح: الفيلسوف المسيحيّ والمرأة، ط1، القاهرة، مكتبة مدبولي، سلسلة الفيلسوف والمرأة (3)، 2009م، ص144.

(2) See, N. Goldenberg, Return of The Goddess: Psychoanalytic Reflections on The Shift from Theology to Thealogy, in (Ed) King: Religion and Gender, Oxford, UK; Cambridge, USA : Blackwell Publishers, 1995, pp.145 - 164.

على عبادة إلهة مؤنّثة تجعل المؤنّث هو الطبيعة والذات. كما تذهب إلى أبعد من هذا عالمة اللاهوت النسويّ سالي ماكفاجو S. Macfague التي دعت إلى ضرورة تجسيد الإلهة الأنثى واعتبار أنّ هذا العالم كلّه جسد لها. أمَّا الفيلسوفة وعالمة اللاهوت الجندريَّة الشهيرة ماري ديلي M. Daly فذهبت إلى أنَّ تحرير المرأة الحقيقيّ يأتي أوَّلًا من إسقاط الفكر الذكوريّ عن المعتقدات والأديان والممارسات الدينيَّة، واستبدال هذا الفكر بدينٍ وثنيٍّ نسويٍّ جديد تكون فيه الإلهة/ الأنثى هي المعبودة الوحيدة[1]. ولقد وجَّهت آنا ليفيا بليرابل –التي نصبت نفسها رسولة تنطق بلسان الإلهة/الأنثى لتبلّغ رسالتها للعالم أجمع- نداءً على شبكات الإنترنت تحثُّ فيه القراء لضرورة نشر تعاليم هذه الإلهة/الأنثى حتّى تسود عبادتها جميع أنحاء العالم.

3. **تفكيك اللغة:** عملت حركات الجندر على تفكيك اللغة لمَّا رأت أنَّ اللغة المستخدمة لغةٌ ذكوريَّةٌ تنحاز للرجل على حساب الأنثى، فتمجّد الذكر وتمتهن الأنثى، ومن هنا دعت إلى العودة إلى اللغة الأمّ، وإلى تحرير اللغة من الصيغ الأنثويَّة، وإطلاق لفظ الشخص أو (المرء Person) بدلًا من (Woman/Man). ولقد نجحت هذه الحركات في الضغط على المؤسَّسات الدينيَّة الغربيَّة. تلك التي خانت رسالتها -حتى أصدرت- في سنة 1994م طبعةً جديدةً من العهدين القديم والجديد، سُمّيت "الطبعة المصححة"! تمّ فيها تغيير المصطلحات والضمائر المذكّرة، وتحويلها إلى ضمائر محايدة!.. من أمثلة ذلك ما أوجبته تلك الحركة من الابتعاد عن الإشارة إلى الإله باعتباره ذكرًا، وضرورة الإشارة إليه باعتباره ذكرًا وأنثى في الوقت ذاته، فيقال على سبيل المثال:(إنَّ الخالق هو الذي/ هي التي، وضع/ وضعت...إلخ)! بل ويُشار إليه أحيانًا

(1) انظر: قطب، خالد: اللاهوت النسويّ وثنيَّة جديدة، القاهرة، مجلَّة أوراق فلسفيَّة، 2013م، العدد 37، ص141.

بالمؤنث وحسب، فهو «ملكة الدنيا» و«سيّدة الكون»!.... وهكذا ألَّهت هذه الحركات الأنثى ذاتها[1].

4. **تفكيك الفنّ والأزياء:** عملت الأنثويَّة أو الحركة الجندريّة على تفكيك الفنّ؛ إذ إنَّها حكمت على الفنّ الغربيّ بمعايير الأبويَّة والدين واللغة. فهو أداة تعبير وإنتاج ذكوريّ، يجعل من المرأة موضوعًا فقط، ومن هنا رأت الحركة الأنثويَّة ضرورة التمرُّد على هذا الفنّ الذي يمتهن -بحسبها- المرأة، ودعت إلى وضع نظريَّةٍ نقديَّةٍ وقِيَم جماليَّةٍ أنثويَّةٍ تكون أساسًا لفنٍّ أنثويّ[2]. كما تمرَّدت بعض ناشطات الجندر على أزياء المرأة ورأت ضرورة تفكيكيها، حيث رأت أنَّ الغرض من الأزياء استرقاق المرأة، وأنَّ الرجل أراد أن يُلهي المرأة بالموضة ليتفرَّد هو بالأمور المهمّة في الاقتصاد والسياسة. والغريب أنَّها دعت إلى لباسٍ أنثويٍّ يشبه ثياب الرجل وليس إلى لباسٍ يُميِّزها عن الرجل، ما يعكس مدى ارتباك هذه الحركة وعدم نضجها.

5. **تفكيك معنى (أنثى، أنوثة، امرأة):** حرصت الحركة الجندريَّة على تفكيك معنى (أنثى، أنوثة، امـرأة) بهدف الوصول إلى ما أسمته الأنثويّات بالهويَّة الأصليَّة للمرأة؛ حيث رأت أنَّ هذه المفردات قد حدَّدت هويَّة المرأة وفق حاجات الرجل والمجتمع. فالمرأة وفقًا لسيمون دي بوفوار لم تولد أنثى ولكن المجتمع هو الذي جعلها هكذا، فالأنثى صنعة اجتماعيَّة. وكذلك المرأة أصبحت امرأة ولم تولد هكذا، ولكن المجتمع هو الذي جعلها هكذا؛ إذ ألزمها بالتزاماتٍ اجتماعيَّةٍ استعباديّة: شخصيَّة وجسديَّة واقتصاديَّة؛ تتجلى عبر إقامةٍ قسريَّةٍ في منزل الزوجيَّة، وخدمةٍ منزليَّة، وتلبيةٍ لرغبات الزوج الجنسيَّة، وإنتاجٍ غير محدّد للأطفال.

(1) السيِّد عليّ، غيضان: «التمركز حول الأنثى واختزال ما هو إنسانيّ في ما هو أنثويّ»، مقال منشور في كتاب: نحن ومسألة المرأة، النجف، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيَّة، سلسلة استراتيجيَّات معرفيَّة (5)، 1441هـ/2020م، ج1، ص282.

(2) انظر: كرار، الأسرة في الغرب، م.س، ص277.

ولذلك كان لا بدَّ من الثورة على كلّ هذه المفاهيم التي سوَّغت للرجل أن يسيطر على المرأة ويُخضعها له. فترى الجندريَّة أنَّ تفكيك (أنثى) سيمحو من وعي النساء ما طُبع فيه أنهنّ خُلقْنَ للرجل. كما أنَّ تفكيك (أنوثة) سيُلغي التبعيَّة الاقتصاديَّة؛ لأنَّ(الأنوثة) كانت مفروضةً على المرأة مقابل إنفاق الرجل عليها. وهنا يعتقد هؤلاء أنّ (امرأة) ستزول تلقائيًّا بعد تفكيك الإطار الذي تحتبس فيه (الأنثى) وتفرض عليها في داخله (الأنوثة)، وهو نظام الزواج والأسرة[1].

ومن هنا رأت حركات الجندر أنَّ الأنوثة النقيَّة تكمن هناك حيث التحرُّر من كلِّ التقاليد الاجتماعيَّة والنظام الأبويّ. ولكنَّها فشلت في العثور على الأنوثة النقيَّة أو حتى عن بديلٍ لها، فلجأت إلى النموذج الذكوريّ فقصّرت شعرها، وارتدت الجينز مقلِّدةً للذكر، ما يعكس ارتباك الحركات الأنثويَّة في تفكيك مصطلح أنثى أو مصطلح امرأة. كما فرضت ناشطات الجندر رؤيتها على العالم، فأصبح من حقِّ المراهقين والمراهقات والأزواج والزوجات اصطحاب الخليلات والرفيقات والأصدقاء والأغراب إلى المخادع، ومن يعترض يُمكن محاكمته قانونيًّا حسب الاتفاقيّات الملزمة، فقد دخل الغرب بالفعل في ظلّ هذه الحركات الأنثويَّة المتطرِّفة دوّامة الموت، ويريد أن يجرّ العالم وراءه. ومن هنا كان لا بدَّ من أن يتبلور تيَّارٌ لتعديل هذا الوضع المنحرف، ويحاول أن يعود بالعالم إلى الطريق المستقيم.

ولا أعرف ما جدوى هذا؟ وماذا قد يعود على المرأة من القضاء على أنوثتها؟ فلو عرفت النساء معنى الأنوثة لعضَّت عليها بالنواجذ، بل لو عرفت الأمم بأسرها ذلك الفضل؛ لسعت سعيًا حثيثًا إلى الحفاظ عليها. فالأنوثة تعني الجمال والرحمة والحنان، ولو فقدت الأمة ينابيع الحنان لأصبحت جسدًا بلا روح، حياةً بلا عاطفة، وأصبح أفرادها كالآلات الصماء،

(1) انظر: كرار، الأسرة في الغرب، م.س، ص289.

تعمل لإدارة حركة الحياة وهي تفقد كلّ معاني الحبّ والرحمة والوفاء. ويوم تفقد البشريَّة حنانَ المرأة ورحمتَها فَقَدَ حُكِمَ عليها أن تتيه في بيداء الماديَّة، مبتعدةً عن منابع الرحمة، عائشةً في شقاء المادَّة وحساباتها المضنية.

خاتمة:

يظهر ممَّا تقدَّم إلى أن الجندر كان نتاجًا طبيعيًّا لشيوع العلمانيَّة وإبعاد الدين عن المجالات الحياتيَّة كافَّة، ولسيادة الفلسفات العقلانيَّة والمادِّيَّة والنفعيَّة والفرديَّة، وشيوع فلسفات ما بعد الحداثة، وخصوصًا التفكيكيَّة التي عملت على التشكيك في الثوابت والخصائص المتعلِّقة بالمرأة والرجل؛ إذ قامت فلسفة الجندر على أنَّ المرأة لا تولد امرأةً بل تصبح كذلك؛ فسمات الأنوثة لا تولد مع الأنثى وإنما تكتسبها من عادات المجتمع وأعرافه على مدار تاريخها. فالاختلاف بين الرجل والمرأة اختلافٌ ثقافيٌّ وإيديولوجي وليس حقيقةً بيولوجيَّة. ومن هنا كانت دعوة أنصار الجندر إلى ثورةٍ بيولوجيَّةٍ تطمس كلَّ الفروق بين الجنسين وتُلغي أدوار الجنوسة، وتُنادي بإعلان العداء بين الجنسين وإعلان الحرب ضدّ الرجال كردِّ فعلٍ انتقاميٍّ ضدّ سيطرة الذكر التاريخيَّة على الأنثى، ورفض الأسرة والزواج، ورفض الأمومة والإنجاب، والمناداة بملكيَّة المرأة لجسدها وحرِّيَّتها الكاملة في التصرُّف فيه، وإباحة الإجهاض، والشذوذ الجنسيّ، وبناء الأسرة النمطيَّة، وإعادة تفكيك: الأبويَّة، الدين، اللغة، الفنّ، أزياء المرأة، الأنثى والأنوثة، الزواج والأسرة. كذلك اعتمدت ناشطات الجندر على تفكيك العلاقة بين الثابت والمتغيِّر في العلاقة بين المرأة والرجل، فإذا كانت البيولوجيا مصنوعًا ثابتًا لا يتأثَّر بالإرادة الإنسانيَّة فإنّ الأدوار الاجتماعيَّة التي تنتجها العناصر المادِّيَّة والمعنويَّة بالمجتمع مصنوع متغيِّرٌ يمكن تغييره حسب الإرادة الإنسانيَّة في كلِّ زمانٍ ومكان. ودعوةٌ

كهذه كفيلةٌ بخلق حالةٍ من الفوضى في القِيَم، وطمس معالم الفطرة النقيَّة في النفوس الإنسانيَّة؛ فالجندر غايته المساواة المطلقة والتماثل التامّ بين الرجل والمرأة، وهذا مخالفٌ لما خلق الله تعالى عليه الجنسين من اختلافٍ تجلّى في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾[1]، ومخالفٌ لفطرة الإنسان الطبيعيَّة والبيولوجيَّة.

خلاصة القول: إنَّه تحت مسمَّى التحرير تطرَّفت المرأة في المطالبة بما يتجاوز حقوقها، وانجرفت تحت الدعاوى التحريريَّة الزائفة، فتحرَّرت من الدين تحت شيوع الأفكار العلمانيَّة، وهجرت المرأة المنزل وزاحمت الرجال في جميع الأعمال والأدوار بدعوى برَّاقةٍ فحواها المساواة مع الرجل، ليظهر-هنا- تعارض مفهوم «تحرير المرأة» مع مفهوم «الجندر»؛ إذ إن مفهوم «تحرير المرأة» يشير إلى إعطاء المرأة حقوقها الطبيعيَّة بوصفها امرأةً داخل المؤسَّسات المجتمعيَّة المختلفة، ومعاملتها معاملةً كريمة تليق بها بوصفها أمًّا وزوجة وابنة؛ وهنا يكون مفهوم المساواة بالرجل فيها قائم على المساواة التكامليّة بين الجنسين. أمَّا مفهوم «الجندر» فيشير إلى التحرُّر من كلِّ المنظومات الدينيّة والاجتماعيَّة والتاريخيَّة والأخلاقيّة تحرُّرًا شبه مطلق، بما في ذلك التحرُّر من الأسرة بشكلها الشرعيّ والتاريخيّ؛ وهنا يكون مفهوم «المساواة مع الرجل» قائم على المساواة التماثليَّة التي تتلاشى فيها مقاصد التدبير والحكمة الإلهيَّة من وجود الزوجين الذكر والأنثى؛ وكان ذلك لسيادة الفكر العلمانيّ الذي يُغلِّب العقل البشريّ على النقل الإلهيّ، ويرفض الدين بوصفه مرجعيَّةً عليا للقطع في الأمور والعودة إليه عند الاختلاف. بل إنَّ القرن الثامن عشر أراد أن يُحطِّم الصليب ويُقوِّض الإدراك الدينيّ للحياة، فأصبح لا هادي للغربيّ سوى عقله، الذي تمركز حول المادَّة وعالم الدنيا المحسوس، وأهمل الغيب والروح والعواطف، فذهب كلٌّ من الرجل والمرأة إلى البحث عن لذَّتهما الخاصَّة في ظلِّ

(1) سورة آل عمران، الآية 36.

تقديس الفرديَّة والمنفعة فلسفةً خاصَّةً اقتنع بها الغرب واعتمدها أساسًا لبناء أفكاره وقِيَمِه حتَّى أصبح ابتغاء اللذة والمتعة والتفنُّن في استجابة الشهوات معلمًا مميّزًا للحضارة الغربيَّة الحديثة.